نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين

للشيخ محمد الخضرى { رحمه الله }

كتاب مختصر يبحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة من الولادة إلى الوفاة وما بينهما من نشأة وبعثة ومحنة وتعذيب وإسراء وطلب نصرة وهجرة ومعارك وعهود ومواثيق وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بسيرته الشريفة صلى الله عليه وسلم

مقدمة المؤلف

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية، ونصلّي ونسلّم على مَن أرسلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان، والأنصار الذين آوَوا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادَّخروا.

أما بعد، فيقول محمد الخضري ابن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين، وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذِّب، وأنصح معلِّم، وكنت أرى في تاريخ نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما لقيَهُ من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده، أعظم مُربَ لأفكار المسلمين، فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه، وما يلزم اجتنابه، ليسودوا كما سادَ سابقوهم، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام، من اجتذاب النفوس النافرة، والتأليف بين القلوب المختلفة، وما يتعلق بقواد الجيوش، من تأليف الرجال وإحكام المعدّات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامّة، من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم. فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً، وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على تركِ المسلمين لها، فقلّما أجد من يشتغل بها، ولكني كنت أُقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع. فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة، فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحول الرجال، وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرزاً فيها، مفصحاً عن الجواب عنها. أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فعنده منها الخبر اليقين، وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامّة المسلمين، فقلت: يا لله لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي،

ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته، فإن المقام عظيم، وصعوباته أعظم. ولكن لم أرَ من الأمر بُدّاً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة، فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب، العميم النفع، الجزيل الفائدة، فقمت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه، وواصلت السَّيْرَ بالسُّرى حتى بلغت المنى،

فجاء بحمد الله، سهل المنال، عذب المورد، تنتفع به العامّة، وترجع إليه الخاصّة. وقد كان مورِدي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تفيهم العبارات، فكان يساعدني «الشفا» للقاضي عياض و«السيرة الحلبية» و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي. هذا، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفّق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيّدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإحياء معالِم دينه حتى يؤيَّدوا بروح من عند الله. وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول:

السيد الأكرم الذي شرف الناس بوجوده هو: (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وَهْب الزُّهرية القرشية. (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية. وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يَصْدُرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهماتهم. (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية. (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مُرّة السلمية. (ابن قُصَيّ) من زوجه حُبَّى بنت حُلَيل الخزاعية، وكان إلى قصيّ في الجاهلية حجابة البيت، وسقاية الحاج، وإطعامه المسمى بالرفادة، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر إلا في بيته، واللواء، لا تعقد راية لحرب إلا بيده. ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمرَ عقلاءُ الفريقين، فأعطوا بني عبد المناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار، وأَقَرَّها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن. وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار، وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة. وقصي (بن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد، وهي يمانية من أزد شَنُوءَة. (ابن مرة) من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك. (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً. (ابن لؤي) من زوجه أم كعب ماوِيَّة بنت كعب من قُضاعة. (ابن غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي. (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هُذيل. وفهر هو قريش ـ في قول الأكثرين ـ وكانت قريش اثنتي

عَشْرَة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصي، وبنو زهرة

بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرَّة، وبنو تيم بن مرّة، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو مُحارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح، والذين بضواحيها قريش الظواهر. (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحارث من جرهم. (ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عَدْوان من قيس عَيْلان. (ابن كنانة) من زوجه بَرَّة بنت مُر بن أُدّ. (ابن خُزَيمة) من زوجه عَوانة بنت سعد بن قيس عيلان. (ابن مُدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قُضاعة. (ابن إلياس) من زوجه خِنْدِف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة. (ابن مُضر) من زوجه الرباب بنت حيدة بن معدّ. (ابن نزار) من زوجه سَودة بنت عَكّ. (ابن معد) من زوجه مُعَانة بنت جوشم من جُرهم. (ابن عدنان).

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق، غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة. نسب شريف كما ترى: آباء طاهرون وأمهات طاهرات، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً. فهو من صميم قريش التي لها القدمُ الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذَل بل كلهم سادة قادة، وكذلك أُمهات آبائه من أرفع قبائلهنّ شأناً، ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهَّره الله من ذلك والحمد لله.

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وسنُّه ثماني عشرة سنة، وهي يومئذٍ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها حملت بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، ولما تمّت مدة حمل آمنة وضعت ولدها، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بثّ في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق. وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة (571) من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بِشِعْب بني هاشم، وكانت قابلته الشَّفَّاء أم عبد الرحمان بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشِّره، فأقبل مسروراً وسمّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبلُ عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل، فألهم جدَّه أن يسمّيه بذلك إنفاذاً لأمره، وكانت حاضِنته أم أيمن بركة الحبشية، أَمَة أبيه عبدِ اللَّهِ، وأول مَنْ أرضعه ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عمه أبي لهب.

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجبَ للولد، وكانوا يقولون: إن المربَّى في المدن يكون كليلَ الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نِسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسبُ له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء ودُرّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات.

حادثة شق الصدر

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وحدّثتها قائلة: بينما هو وإخوته في بَهْم لنا خلف

بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشَقَّا بطنه فهما يَسُوطانه. فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بنيّ؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقَّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو.

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء فحضنته أُمُّ أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورقَّ له رِقَّةً لم تُعْهَد له في ولده، لما كان يظهر عليه مما يدلّ على أن له شأْناً عظيماً في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيماً وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مُقلاً من المال فبارك الله له في قليله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثالَ القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أُم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقتُ الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسرُهُ الله له.

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنُّه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة، أراد عمّه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه، فرقّ له، وأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة ـ وهم بقرب بُصرى ـ بحيرا الراهب، فسألهم عمّا رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن، فقالوا: إنه لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول {فَلَمَّا جَآءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (البقرة: 89).

حرب الفِجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة حضر حرب الفِجَارِ، وهي حرب كانت بين كِنانة ومعها قريش، وبين قيس. وسببها: أنه كانَ للنعمان بن المنذر ملكِ العرب بالحيرة تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عُكاظ لتُباع له، وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعةٍ وشرف في قومه ليجيزها فجلس يوماً وعنده البراض بن قيس الكناني ـ وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شرّه ـ وعروة بن عتبة الرحَّال فقال: مَنْ يُجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البرَّاض: أنا أُجيزها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أُريد مَنْ يُجيزُها على الناس كلهم. فقال عروة: أبيت اللعن أكلبٌ خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقَيْصوم من أهل نجد وتهامة. فقال البَرَّاض: أو تُجيزها على كنانة يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم، فأسرَّها في نفسه، وتربَّص له حتى إذا خرج بالتجارة، قتله غدراً، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحذرهم قيساً قوم عروة. وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همّت لتدرك ثأرها، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة، فاقتتلوا، ولما اشتدّ البأس وحميت قيس، احتمت قريش بحرمها، وكان فيهم رسول الله. ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنّا لا نترك دم عروة، فموعدنا عكاظ العام المقبل، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً، فلما حالَ الحَوْلُ جمعت قيس جُمُوعها وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وكان رئيس بني هاشم الزبيرُبن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم، وكان على بني أميّة حربن أميّة، وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفاً وسناً. وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، فكان يوماً من أشدّ أيام العرب هَولاً، ولما استُحِلَّ فيه مِنْ حُرُمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سُمي يوم الفِجار. وكادت الدائرة تدور على قيس

حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم مَنْ دَعَا المتحاربين للصلح على أن يُحصُوا قتلى الفريقين، فمَن وجد قَتلاه أكثر أخذ ديَة الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حربن أمية، ورهن لسَدَادها ولده أبا سفيان. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى ألّفَ الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم.

حِلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار تداعوا لحلف الفُضُول فتم في دار عبد اللهبن جُدْعَان التَّيْمِي أحد رؤساء قريش، وكان المتحالفون: بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، وبني أسدبن عبد العزّى، وبني زهرةبن كلاب، وبني تَيْمبن مُرّة تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى تردّ إليه مَظْلِمته، وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه، وقال بعد أن شرّفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد اللهبن جُدعان ما أحبّ أن لي به حُمْر النَّعَمِ ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دينُ الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرّة الثانية، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصِدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ممّا كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها مَيْسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة.

زواجه خديجة

فلما قَدِما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سُرَّت من الأمين عليه الصلاة والسلام وأرسلت إليه تخْطُبُهُ لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالاً، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمروبن أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوّجها عمّها. وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضِئْضِىءِ معدّ، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسُوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً،

وجعلنا حكّام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمدبن عبد الله لا يُوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردّة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّدَاقِ كذا. وعلى ذلك تم الأمر. وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

بناء البيت

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة، جاء سيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها، فإنها كانت رضيمة فوق القامة، فاجتمعت قبائلهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم. فقال لهم الوليدبن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح، قال: إن الله لا يهلك المُصلِحين، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صِحافاً نُقش فيها كثير من الحِكَم على عادة مَنْ يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين. ثم ابتدؤوا في البناء وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مَهرُ بغيَ ولا بيعُ رِبا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم، وقد خصّص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْرَ، وبنوا عليه جداراً قصيراً، علامة على أنه من الكعبة، ولما تم البناء ثمانية عشر ذراعاً بحيث زِيدَ فيه عن أصله تسعة أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد إليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أميةبن المغيرة المخزومي عمُّ خالدبن الوليد فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكِّموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نَكِلُ الأمر لأوّل داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لِمَا يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري. فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية

من الثوب، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن مَنَّ الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يُرضي جميعهم. ولا يُستغرب من قريش تنافسهم هذا، لأن البيت قِبلَة العرب وكعبتهم التي يحجّون إليها، فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة، وهو أول بيت وُضِع للعبادة بشهادة القرآن الكريم، قال تعالى في سورة آل عمران: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لّلْعَالَمِينَ(96) فِيهِ ءايَاتٌ بَيّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْراهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً} (آل عمران: 96، 97) وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرهم فلما بَغوا وظلموا مَنْ دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلَوهم عن البيت، ووليته خزاعة حيناً من الدهر، ثم أخذته منهم في عهد قصيبن كلاب، وبسببه أمِنوا في بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين، وامتنّ الله عليهم بذلك في تنزيله، فقال في سورة العنكبوت: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} (العنكبوت: 67).

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يَرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً، بل ولد يتيماً عائلاً فاسترضع في بني سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكّنه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لمّا رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه. ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بدّ منه، لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السالِفين أعظمُ شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهدَ الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى، وإبراهيم. وكانت حالتهم في صغرهم ليست سَعَة بل كلهم سَواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها، وذلك سبب البلايا والمحن. وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري. وهذه أيضاً من بالغ الحِكَم فإن الإنسان إذا استرعى الغنم

ـ وهي أضعف البهائم ـ سكن قلبَه الرأفةُ واللطفُ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هُذِّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال. ولما شبّ عليه الصلاة والسلام كان يتجر، وكان شريكه السائببن أبي السائب. وذهب بالتجارة لخديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى الشام على جُعْل يأخذه. ولما شرفت خديجة بزواجه، وكانت ذات يسار، عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله. وحقق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جلّ ذكره: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى(6) وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى(7) وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى(8) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَاكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ

مَن نَّشَآء مِنْ عِبَادِنَا} (الشورى: 52).

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خُلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدَهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضلَ قومه مروءةً، وأكرمَهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدَقهم حديثاً، فسمّوه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء. حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضربن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر. قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هِرَقْلُ ملك الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدعَ الكذب على الناس ويكذبَ على الله، ورد ذلك في أول صحيح البخاري.

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به

عُبَّادُها. وقال عليه الصلاة والسلام: «لما نشأتُ بُغِّضَتْ إليّ الأوثان، وبُغِّض إليّ الشعر، ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسْمُر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئتُ أول دارٍ من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذنيَّ فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس ولم أقضِ شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك». وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يُحَلِّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوّة وبعدها، أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيُسند إليهم، وأمَّا بعدها فليكونوا قدوة لأممهم. عليهم من الله أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات.

ما أكرمه الله به قبل النبوّة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين فلما صار بينهم صارت غُنَيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً، ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته:

وإذا سخَّر الإله أُناساًلسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظِّ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر، لا يعرف من قوة الله شيئاً، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب.

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره، وهذا ما حبّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً. ولذلك لما جاءته النبوّة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار، فكان إذا خرج

لحاجته أبعدَ حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً، وقد حدَّث بذلك عن نفسه. وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخّر الله الجمادات للأنبياء قبله، فعصا موسى التقمت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّلت حيّة تسعى ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَارة شأنهم.

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوّه فيها بذكر كثيرٍ من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيّدنا موسى عليه السلام: «وسوف أُقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومَنْ لم يُطِعْ كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترىء عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببتَ أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك: إنّ ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه». ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشعبن نون خليفة موسى عليه السلام، مع أنهم كانوا ينتظرون في مدّة المسيح نبيّاً آخر غير المسيح، فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا ما بالك إذاً تُعَمدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأتِ حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى، وقد نصّت في آخر سفْر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفتري على الله يُقتل، ويُشْبهُ ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقَاوِيلِ(44) لاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46) وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة: 67) أكان يعجز الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ أن

يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ

وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(24)
وروى القاضي عياض في الشفا أن عطاءبن يسار سأل عبد اللهبن عمروبن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ياأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً(45)

وروي مثله عن عبد اللهبن سَلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُعْمِه الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار. وفي بعض طرق الحديث: «ولا صَخَّابٍ في الأسواق ولا قوَّال للخنا، أُسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملَّته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأُسمي به بعد النكرة، وأُكثِّر به بعد القلّة، وأُغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأُؤلِّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس». وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة فقال ـ وهو الصادق الأمين ـ: عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره المدينة ـ أو قال: طَيْبة ـ وأمته الحمَّادون الله على كل حال.

تبشير الإنجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدّقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِى إِسْراءيلَ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصف: 6) وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيّنا فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلّمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق

من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى(4) } (النجم: 3 ـ 4) وقد ورد في إنجيل برنابا ـ الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب الجهالة ـ ذكرُ اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة.

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر. فقد حدَّث عاصمبن عمربن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحْبار يَهود، كنا أهل شِرك وأصحابَ أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمداً أجَبْنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنّا وكفروا. وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن هذا النبيَّ يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أَنَّ الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيّم فيحقّ عليهم العذاب في الدنيا والآخرة. وكان أميّةبن أبي الصلت المتنصّر العربي كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا. وحدَّث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً فكان يقول له: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان. ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض لم يُهِنْ كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وِفَادَةَ رسله. ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوّة يُرهِبُ بها هؤلاء الملوك اللهمَّ ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم

فأجابوا بالتي هي أحسن، وأما ما سُمع من الهواتف والكُهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر. وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر. ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقوّ لحجته ومؤيدٍ لدعوته. وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمَّلْه ترشد هداك الله إلى الصراط السويّ.

بدء الوحي

لمّا بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليُخرجهم من ظُلمات الجهالة إلى نور العلم وكان ذلك في أول فبراير سنة 610 من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أَنَّ ذلك كان في 17 رمضان سنة 13 قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة 610. وأول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال. ومن الصعب جداً على البشر تلقي الوحي من المَلَك لأول مرة، ثم حبّب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء، ليبتعد عن ظُلُمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله فإن في العزلة صفاءَ السريرة. وكان يخلو بغار حِراء فيتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر. وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذْ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فإنه عليه الصلاة والسلام أميّ لم يتعلم القراءة قبلاً. فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء. فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغطّه الثالثة، ثم أرسله

فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الَّذِى خَلَقَ(1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ(3) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا} (إبراهيم: 13) ولتمام تصديقِ ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال: وإن يدْركْني يومك أَنْصُرْكَ نصراً مؤزّراً (معضداً). ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

فترة الوحي

وَفَتَرَ الوحي مدّة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً، ليشتدّ شوق الرسول للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتدّ به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراهُ نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدّى له الملَك قائلاً: أنت رسول الله حَقاً، فيطمئن خاطره ويرجع عمّا عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحي.

عود الوحي

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من السماء فرفع إليه بصره، فإذا المَلَك الذي جاءه بحِراء جالس بين السماء والأرض، فرُعب منه لتذكّر ما فعله في المرة الأولى فرجع وقال: دثروني، دثروني. فأنزل الله تعالى عليه: {يَأَيُّهَا الْمُدَّثّرُ(1) قُمْ فَأَنذِرْ(2) وَرَبَّكَ فَكَبّرْ(3) وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ(4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(5) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(6) وَلِرَبّكَ فَاصْبِرْ(7)

الدعوة سرّا

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جُفاة لا دين لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم ألا أنهم متّبِعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزّة والأَنَفة، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه. فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أَعْمَته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تُسلَب منه عظمته. وكان أول من سَطَع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زَوجه، وعليبن أبي طالب ابن عمه، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بأمره، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مُقِلاًّ كثير الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام لعمّه العباسبن عبد المطلب «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفِّف من عياله، تأخذ واحداً، وأنا واحداً»، فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباس جعفربن أبي طالب، وأخذ عليه الصلاة والسلام عليّاً، فكان في كفالته كأحد

أولاده إلى أن جاءت النبوّة وقد ناهز الاحتلام، فكان تابعاً للنبي في كل أعماله، ولم يتدنس بدَنَس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتّباع الهوى، وأجاب أيضاً زيدبن حارثةبن شرحبيل الكلبي، مولاه عليه الصلاة والسلام، وكان يُقال له زيدبن محمد، لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنَّاه، وكان المتبنَّى معتبراً كابن حقيقي يرث ويورث، وأجابت أيضاً أُمُّ أيمن حاضنته التي زوّجها لمولاه زيد. وأول مَنْ أجابه من غير أهل بيته أبو بكربن أبي قحافةبن عامربن عمروبن كعببن سعدبن تَيْمبن مرّة التيمي القرشي، كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق ولم يَعْهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله

إلاّ الله وأنك رسول الله. وكان رضي الله عنه صدراً معظّماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعفّ الناس، سخياً، يبذل المال، محبباً في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلها، وقال في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر». وكانت الدعوة إلى الإسلام سرّاً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا مَنْ يثق به. ودعا أبو بكر إلى الإسلام مَنْ يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع منهم: عثمانبن عفانبن أبي العاصبن أميةبن عبد شمسبن عبد مناف الأموي القرشي، ولما علم عمه الحَكَمُ بإسلامه، أوثقه كتافاً وقال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث؟ والله لا أحلّك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه ولا أُفارقه. فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره. ومنهم: الزبيربن العوّامبن خويلدبن أسدبن عبد العزىبن قصي القرشي، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وكان عمّ الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه، فقوّاه الله بالثبات، وكان شاباً لا يتجاوز سن الاحتلام.

ومنهم: عبد الرحمانبن عوفبن عبد عوفبن الحارثبن زهرةبن كلاب القرشي الهاشمي، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه الصلاة والسلام عبد الرحمان.

ومنهم: سعدبن أبي وقاص مالكبن أُهيببن عبد منافبن زهرةبن كلاب الزهري القرشي. ولما علمت أمه حَمْنَةُ بنت أبي سفيانبن أمية بإسلامه قالت له: يا سعد بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظلُّني سقف من الحر والبرد، وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد. وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليماً قول الله تعالى في سورة العنكبوت: وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(8) . ف } من آمن منكم ومَنْ أشرك، فأُجازيكم حقّ جزائكم. وفي ختام هذه الآية فائدتان: التنبيه على أن الجزاء إلى الله فلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما، والحضّ على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ الجزاء في الأخرى.

ومنهم: طلحةبن عبيد اللهبن عثمانبن عمروبن كعببن سعدبن تيمبن مرّة التيمي القرشي وقد كان عَرَف من الرهبان ذكرَ الرسول وصفته، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عمّا العرب من المثالب، بادر إلى الإسلام.h

وممن سبقوا إلى الإسلام: صهيب الرومي وكان من الموالي، وعمّاربن ياسر العنسي وقد قال رضي الله عنه: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سميّة.

ومن السابقين الأولين: عبد اللهبن مسعود، كان يرعى الغنم لبعض مُشرِكي قريش، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه عليه السلام من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله، وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يُحجب، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويُلبسهُ نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه.

ومن السابقين الأوّلين: أبو ذر الغِفاري وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث، ولما بلغه مَبْعَث رسول الله قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت. فتزوّدَ وحمل قِربة له فيها ماء، حتى قَدِمَ مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكَرِه أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل مَنْ يخاطب رسول الله، حتى

إذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبَحَ احتمل قِربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أُضيف به بالأمس؟ فأقامه، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك، ثم قال له علي: ألا تحدّثني ما الذي أقدمَكَ؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى ندخل مدخَلي ففعل. فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، قال: والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظَهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه وقال: ويلكم أوَلَستمُ تعلمون أنه من

غِفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس عليه. رواه البخاري. وكان رضي الله عنه من أصدق الناس قولاً، وأزهدهم في الدنيا.

ومن السابقين: سعيدبن زيد العدوي القرشي، وزَوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وأُم الفضل لُبابة بنت الحارث الهلالية، زوج العباسبن عبد المطلب، وعُبيدةبن الحارثبن عبد المطلببن هاشم، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة عبد اللهبن عبد الأسد المخزومي القرشي ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجه أم سلمة، وعثمانبن مظعون الجمحي القرشي، وأخواه قُدامة، وعبد الله، والأرقمبن أبي الأرقم المخزومي القرشي.

ومن السابقين الأوّلين: خالدبن سعيدبن العاصبن أميةبن عبد شمس الأموي القرشي، كان أبوه سيد قريش إذا اعتمَّ لم يعتمّ قرشي إجلالاً له، وكان خالدبن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية، فأدركه رسول الله وخلّصه منها فجاء إليه وقال: إلامَ تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة